

Self Representations and Manifestations of Heroism in The Narrative of Al Sira Al Hilaliya

Meriem Zennour¹

¹ Emir Abdelkader University of Islamic Sciences -Constantine- ، Faculty of Islamic Arts and Civilization(Algeria).

Received: 10/2022

Published: 07/2023

Abstract :

The popular biography is a unique text that is open to different literary genres and different cultural formats, thanks to its formative structure and stylistic characteristics, it has been able to comprehend much of the details of the life of the arab human being, So, it has conveyed to us a full picture of scenes and visions that honestly reflected the features of his life, his view on life and the nature of his interaction with ideas and situations.

From this stand point, this article seeks to investigate the features of the Arab self and the manifestations of heroism in it in the text of Al Sirah Al Hilaliyah as one of the most representative texts of the Sirian discourse on the one hand, and the uniqueness of its view of the Arab self in dealing with the idea of heroism ,taking some of the strategies of cultural criticism as an approach in approaching this text and revealing its hidden formats.

Keywords: Biography, Self, Heroism, Bani-Hilal, Cultural criticism.

Email Author: meriem.zennour@univ-emir.dz

تمثلات الذات الفاعلة وتجليات البطولة في محكي السيرة الهلالية.

د.مریم زنور¹

¹ جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة –، كلية الآداب والحضارة الإسلامية

ملخص المقال:

تعدّ السيرة الشعبية نصاً متفرداً منفتحاً على الأجناس الأدبيّة والأنساق الثقافيّة المختلفة، وقد استطاع بفضل بنيته التكوينية وخصائصه الأسلوبية أن يستوعب الكثير من تفاصيل حياة الإنسان

العربي، فنقل لنا صورة مفعمة بالمشاهد والرؤى التي عكست بشكل صادق ملامح حياته ونظرتة إلى الحياة وطبيعة تفاعله مع الأفكار والمواقف، ومن هذا المنطلق يسعى هذا المقال إلى تقصي ملامح الذات العربية وتجليات البطولة فيها في نص السيرة الهلالية باعتباره واحداً من أكثر النصوص تمثيلاً للخطاب السيري من جهة، ولفرادة نظرتة للذات العربية في تعاطيها مع فكرة البطولة، متخذين من بعض استراتيجيات النقد الثقافي منهاجاً في مقارنة هذا النص وكشف أنساقه المضمرة.

الكلمات المفتاحية: سيرة، ذات، بطولة، سيرة بني هلال، نقد ثقافي.

على سبيل التوطئة: "السيرة الشعبية قضايا وإشكالات"

تعد السيرة الشعبية عالماً رحباً ونصاً منفتحاً لما لها من خصائص بنيوية وتكوينية استطاعت معها أن تستوعب مختلف الأجناس الأدبية والأنساق الثقافية التي تحيل القارئ على عالم من الرؤى والمشاهد تتفاعل فيها مقومات الذات بمفاهيم الأخر، ولعل تلك الخاصية الانفتاحية التي ميّزت الخطاب السيري كانت واحدة من أبرز الأسباب والعوامل التي حالت دون استقرار مفهومها وخصائصها التجنيسية. وهو ما جعل قضية المفهوم والتجنيس واحدة من أكثر القضايا التي أثرت حول السيرة الشعبية التي كانت - شأنها شأن العديد من الأجناس الأدبية السردية- بعيداً عن مجال اهتمام الناقد العربي الذي ركّز جلّ عنايته على الأجناس الأدبية النخبوية وأهمل الكثير من الأجناس والأنواع الأدبية السردية على وجه الخصوص.

فنظراً لكون السيرة الشعبية "تنتهي إلى مرويات العامة، وهذا الانتماء هو الذي جعلها تتشكّل في منأى عن الثقافة المتعالية التي تعنى إجمالاً، بأخبار الخاصة الأمر الذي أفضى إلى عدم العناية بهذه المرويات، تدويناً ووصفاً"¹ وقد وصل الحد ببعض نقاد السيرة إلى رفضها رفضاً قطعياً يستند إلى البعد الديني الأخلاقي بالدرجة الأولى على نحو ما نجده عند ابن كثير في قوله: "وأما ما يذكره العامة عن البطال من السيرة المنسوبة إلى دلهمه والبطال والأمير عبد الوهاب والقاضي عقبة، فكذب وافتراء ووضع بارد، وجهل وتخبط فاحش، لا يروج ذلك إلا على غبي أو جاهل ردي. كما يروج عليهم سيرة عنتره العبسي المكذوبة، وكذلك سيرة البكري والدنف وغير ذلك، والكذب المفتعل في سيرة البكري أشد إثمًا وأعظم جرماً من غيرها، لأن واضعها يدخل في قول النبي ﷺ: من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من

¹ عبد الله إبراهيم: النثر العربي القديم - بحث في ظروف النشأة وأنظمة البناء-، منشورات جامعة السابغ من أبريل، الجماهيرية الليبية، ط1، دت، ص 153.

النار"¹. فحُكِم على السيرة حكماً دينياً أخلاقياً رد عليه فاروق خرشيد بأن "السيرة الشعبية ليست وثيقة دينية أو تاريخية نبحت فيها عن الصدق والحقيقة العلمية"².

أبعدت السيرة الشعبية كما أبعدت الكثير من الأجناس والأنواع الأدبية عن مركزية المؤسسة النقدية العربية فكانت السيرة الشعبية "من أنواع الأدب العربي الذي أهمل، أو أغفل؛ ذلك لأنه لم يندرج ضمن الأنواع الأدبية المعروفة، وقد اشترك في هذا الإهمال كثير من الباحثين، عرباً كانوا أم غير عرب. وقد أدى ذلك إلى التهاون في جمع نصوصها، فضاعت النصوص التي كانت تُروى في الأربعينيات عن عنترة، وسيف بن ذي يزن، والمهمل، بوفاء رواتها. كما ضاع كثير من النصوص المختلفة لسيرة بني هلال لوفاء رواتها"³. وأدخلت بذلك في حيز المهمل أو ما اصطلح عليه بـ "اللانص"، في مقابل النص أي ذلك الإبداع اللفظي الذي لقي عناية تلك المؤسسة وانطبقت عليه الشروط التي كان النقاد العرب لا يرونها في تلك الإبداعات التي أهملت وأخرجت من دائرة اهتمامهم⁴، أما عبد الله إبراهيم فيرى أن التهميش الذي طال نصوص السيرة الشعبية في المؤسسة النقدية العربية كان "لأسباب تتصل بالشفرة الثقافية جرى اعتبارها نصوصاً غير أدبية، فقد اختارت هذه المؤسسة (...) أن تستبعد عن همومها النقدية المشرعة، جميع مظاهر الأدبية (الشعبية)، أي ذلك النوع من النصوص الذي يندرج في شفرة الأنواع الشكلية عند العرب، ولا يخضع للبناء الأيديولوجي للغة الأدبية"⁵، ورغم ذلك كله إلا أن السيرة الشعبية لم تغب عن دائرة تلقي الجمهور العربي بمختلف طبقاته الثقافية، فقد احتفى المتلقي العربي بالسير الشعبية احتفاءً كبيراً يعكس الانفصال الحاصل بين المتلقي والمؤسسة النقدية.

إن التقاطع الحاصل بين السيرة الشعبية والعديد من الأجناس السردية الأخرى جعل العديد من الدارسين يلحق السيرة ببعض أجناس السرد على غرار الرواية أو الملحمة أو حتى الكتابة التاريخية، إلا أن تاريخية السيرة الشعبية وحصيلتها الإبداعية الضخمة جعلتها تفرض نفسها جنساً مستقلاً له خصوصياته التي يتفرد بها ويتميز عن سائر الأجناس الأخرى، حيث يذهب شمس الدين الحجاجي إلى التفريق بين السيرة والرواية مثلاً انطلاقاً من أن الخطاب السيري "نبت وتطور وارتقى قبل أن تظهر الرواية وغيرها من الأنواع الأدبية، فإضافة لفظ رواية لعمل له قوانينه الخاصة التي استقرت، يُعدّ إضافة

¹ الحافظ ابن كثير: البداية والنهاية، دار المعارف، بيروت، ط8، 1990م، ج9، ص334.

² ينظر فاروق خرشيد: أضواء على السيرة الشعبية، دار القلم، القاهرة، ط1، 1964م، ص45.

³ أحمد شمس الدين الحجاجي: مولد البطل في السيرة الشعبية، دار الهلال، القاهرة، 1996، ص5.

⁴ ينظر سعيد يقطين: الكلام والخبر- مقدمة للسرد العربي-، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 1997م، ص51.

⁵ عبد الله إبراهيم: موسوعة السرد العربي 2، قنديل للطباعة والنشر، الإمارات العربية المتحدة، ط1، 2016م، ص170.

بعيدة عن الموصوف؛ فالرواية فن لم يستقر بعد (...). ولا يمكن تطبيق قواعد فن لم يكتمل على فن اكتمل منذ أمد بعيد"¹، غير أنّ المعيار الزمني الذي احتكم إليه الحجاجي في التفريق بين جنسي الرواية والسيرة، هو ذاته المعيار الذي جعل فاروق خرشيد يرى في السيرة الشعبية مرحلة من مراحل تشكّل الجنس الروائي، يقول في كتابه الرواية العربية في عصر التجميع:

"تكوّن كتب السيرة المكون الثالث في العناصر المكونة لهذا العصر الذي نسميه بعصر التجميع في الرواية العربية (...). ونحن نضم كتب السيرة إلى الأعمال القصصية إنّما نستند إلى طبيعة الكتب ومنهجها كما نستند إلى تاريخها وتطورها"²، فجعل من الطبيعة والمنهج إضافة إلى التاريخ والتطور أدلة ومرتكزات لإثبات أبوة السيرة الشعبية للرواية، فالطبيعة السردية المشتركة جعلت من الجنسين يستهدفان موضوعات متقاربة متصلة في المقام الأول بحياة الشعوب والقضايا الإنسانية المتصلة بها، لاسيما ما اتصل بحياة الطبقات المهمشة والمجموعة التي تحلم بالانعتاق والتحرر من ربة الذل والانكسار والتعصب، أضف إلى ذلك الاشتراك الحاصل بينهما (الرواية والسيرة) على مستوى المنهج أو طريقة عرض المادة الحكائية من عرض وتسلسل للأحداث، ووصف للشخصيات والأماكن والفضاءات السردية وما إلى ذلك من خصائص البنية السردية عموماً، فيلتقي بذلك التقاء واضحاً مع مقومات الجنس الروائي الذي يشترك معه أيضاً في التطور الدرامي للحدث وتشابك الأحداث وتعقدتها ثم تدرجها نحو الحل أو الانفراج، ولعل ذلك كلّهُ هو ما جعل فاروق خرشيد يقارب بين السيرة الشعبية والرواية وينظر إليهما على أنّهما وجهان لعملة واحدة، وإلى جانب ذلك يمكننا أن نضيف قاسماً آخر مشتركاً بين الخطابين يتجلى في قدرة كل منهما على استيعاب ثقافة المجموعة البشرية التي يتحدث عنها النص، فينقل بذلك صورة ظاهرة أو خفية ملامح تلك المجموعة ومصادر ثقافتها من معتقدات وعادات وتقاليد وأعراف وقوانين وما إلى ذلك من بني اجتماعية وسياسية وفكرية.

كما أنّ انفتاح الخطاب السيري على مختلف الأجناس الأدبية وقدرته على استيعاب الشعر والنثر معاً دون نفور منه أو استعصاء جعل إشكالية تجنيسه وضبط مقوماته الأدبية تزداد حدة، كما جعل منه نصاً أكثر انفلاتاً وزئبقية لاسيما وأنّه وضع القارئ في حيرة من أمره حين احتوى وهو الخطاب الهامشي أجناساً أدبية نخبوية في مقدمتها الشعر والخطابة والرسالة، وهو ما يستدعي من الناقد مقارنة هذا النص

¹ أحمد شمس الدين الحجاجي: مولد البطل في السيرة الشعبية، ص 28

² ينظر فاروق خرشيد: الرواية العربية في عصر التجميع، دار الشروق، بيروت، ط3، 1982م، ص ص 177-178.

يحذر شديد لمحاولة كشف تلك الحدود الهلامية بين الهامشي والنخبوي في الخطاب السيري وفق آليات واستراتيجيات نقدية قادرة على بيان أنساقه الثقافية والجمالية.

1- مركزية الفاعل السردى في خطاب السيرة الهلالية:

تعدّ السيرة الشعبية من الأجناس السردية الكبرى، فقد تصل إلى آلاف الصفحات كما هو الحال في سيرة الأميرة ذات الهمة، ما يجعلها منفتحة على عدد كبير من الشخصيات، فتتعدد شخص السيرة الشعبية وتتنوع طبيعتها، والمتأمل فيها يرى أنها تتمفصل عموماً إلى شخصيات مرجعية، وشخصيات متخيلة وشخصيات عجائبية، أما الشخصيات المرجعية فهي شخصية يمكن أن يكون لها حضور آخر خارج نص السيرة، ومعنى ذلك أن الرواي استقاها من عوالم نصية أخرى (كتابية-شفاهية) محافظاً على بعض ملامحها المرجعية، مع إضافة بعض التحويلات على ملامحها الأخرى فأعطاهما بذلك طابعاً خاصاً، فشخصية الزير سالم، وسيف بن ذي يزن والأميرة ذات الهمة كلها شخصيات مرجعية أخذت أبعاداً سردية إضافية داخل إطار السيرة الشعبية، أما الصنف الثاني من شخصيات النص السيري والتي تتمثل في الشخصيات التخيلية فهي من نسج خيال الرواي الشعبي فلا وجود لها خارج النص، ولا نجد لها أبعاداً مرجعية أو تاريخية، وفي السيرة أيضاً شخصيات عجائبية ترتبط أشد الارتباط بالطبيعة العجائبية للنص السيري، ولئن كانت تلك الشخصيات ليس لها مرجعية تاريخية إلا أن "لها مرجعية معرفية متمثلة في تلك الأعداد الهائلة من المصنّفات الدينية، وكتب الرحلات، والجغرافيا العجائبية، ومصنّفات السحر، وكتب العزائم والتعزيم. وللجن حضورهم في السيرة الشعبية بمختلف أجناسهم وأنواعهم إلى جانب السحرة والكهنة، والأولياء الصالحين والدرائش، والكائنات الممسوخة والمتحوّلة"²، وتعمل الذات الساردة على الجمع بين تلك الشخصيات المختلفة وتجعلها تتفاعل فيما بينها لتنتج نسقا مختلفا من الأفعال والأحداث التي تقترب من التاريخ وتبتعد عنه في آن واحد، فالسيرة الشعبية من الأجناس الأدبية التي استطاعت إنتاج نص مواز للنص التاريخي، إنها الكتابة المضادة التي اقتضتها ظروف تاريخية بعينها، فبعد انتقال العرب من حكام يحكمون زمام أمورهم إلى محكومين يحكمهم الآخر وتغيرت موازين القوى، جاءت السيرة الشعبية لتكتب تاريخاً مفارقاً للواقعي والمرجعي، و"تستدعي أشهر فرسان العرب ليكونوا أبطالاً لعصور

¹ ينظر سعيد يقطين: قال الرواي - بحث في بنية الحكاية الشعبية-، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، ط1، 1997م، ص 95.

² ضياء الكعي: السرد العربي القديم - الأنساق الثقافية وإشكاليات التأويل-، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 2005م، ص 183.

غير عصورهم، وهو ما جعل بعض الباحثين، يعللون ظهورها، بأنه نوع من استحضار الماضي المجيد، لمواجهة عصر، انحسر فيه الدور العربي¹ وتراجعت مكانته.

إنّ للذات الساردة دوراً مركزياً في تحريك أحداث السيرة الشعبية وتوزيع الأدوار على الشخصيات بمختلف أنواعها، فهي تمارس نوعاً من السّلطة على مسرودها تحاول من خلاله سحب المتلقي إلى منطقتها من خلال استدعاء فعل البطولة وبنه في شخصياته المرجعية والمتخيلة ووضعها في سياق مواجهات وندية مع القوى العجائبية التي تزيد من رمزية الشخصية وأبعادها البطولية، ولعل السيرة الهلالية واحدة من تلك السير الشعبية العربية التي كان لها حضورها البارز في وجدان المتلقي العربي فكانت بذلك نصّاً ثقافياً "ينفتح على مختلف مكونات الواقع العربي، وثقافته، وتقدّم لنا نصّاً يتفاعل مع مختلف ما أنتج الإنسان العربي في تاريخه"²، ويعرضه لنا في شكل مشاهد ورؤى وصور حية.

2- تمثيلات البطولة وأنساقها في السيرة الهلالية:

قدّمت السيرة الهلالية تصوراً خاصاً للإنسان العربي تمثّلت في صورة البطل الذي هيأت له النبوءة ومهدت لظهوره، ثم جاءت السيرة كلّها لبيان اختلافه وفرادته، فكأن القصة قصته، فبدءاً بحدث الولادة وصولاً إلى مأساة الوفاة كان أبو زيد الهلالي رجلاً مختلفاً متفرداً على مستويات عديدة، فبعد أن تضرع الأمير رزق إلى الله أن يرزقه الذكر " حملت امرأته وكانت تطلب من الله أن يرزقها ولداً ذكراً، وخرجوا مرة إلى بستان، فرأت غراباً أسود يطرد الغربان، ويقهرهم، ويفتك بهم، فقالت: إلهي أسألك أن ترزقني ولداً ذكراً، ولو كان لونه أسود، لعله ينشأ يغلب الفرسان، ويقهرهم مثل هذا الغراب ثم أنشدت تقول:

| | |
|------------------------------|--|
| ياربُّ يا رحمن سامع الدعا | ترزقني ولد ذكراً جيا |
| بكر على فرسان البوادي جميعها | ويعلو ذكره في سائر الأقطار |
| وينسر قلبه وخطاطري | لأنّي شريفة في بيوت كبار" ³ |

فكان للدعاء وظيفة مركزية في حركية أحداث السيرة، وهو ما يعكس نسقاً دينياً ارتبط بطبيعة الثقافة الإسلامية والفكر الديني للشخصيات، "فلما فرغت من دعائها عادت إلى ديارها، وعند تمام الحمل أتاها

¹ عبد الله إبراهيم: النثر العربي القديم، ص ص 153 - 154.

² سعيد يقطين: الكلام والخير- مقدمة للسرد العربي-، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط1، 1997م، ص 09.

³ سيرة بني هلال، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1981م، ص 24.

الطلق، فوضعت غلاماً أسمر اللون¹، فكان لتحقيق الدعاء أثر في ميلاد هذا النص، الولد الذي جاء على غير صورة والديه هو بؤرة السرد وموضوعه، فذلك الميلاد المختلف جعل اللون نسقا مضمرا ساهم بشكل ظاهر ومستتر في بناء شخصية البطل، فقد كان اللون سبب الرفض الأبوي الذي قابل به الأمير رزق مولوده الأسود، كما كان سبب رفضه العائلي من قبل أبناء عمومته، وقد عبّرت السيرة عن هذا في مواضع عديدة لخصها الأمير رزق شعرا في قوله²:

| | |
|----------------------------|-------------------------------|
| يا سيدي جاك السعد والخيرات | يقول الفتى رزق الأمير بما جرى |
| جابت ولد بعيون مكحلات | جاءني سيار بن مسعود قال لي |
| يبقولك بالبيت حلابات | ستي خضرا بنت قرضاب خلفت |
| وعلمت أهالينا مع السادات | فقلت له النياق بشارتك |
| يا رزق يا صور الهاليات | سميتك بركات علمت عمومتك |
| رآك أسمر بعيون سودات | فجاءني سرحان بن عمي وقال |
| والوجه منه يشبه العتمات | هات لنا المولود ننقطه |
| علينا وعملوا لنا ضجات | فقال هذا الولد يشبه لعبدك |
| اشهدوا الخضرا طالقة بإثبات | وصاروا هلال كلهم يتغامزوا |
| والتم شملي فيك بعد شتاتي | فقلت لهم يا هلال ويا عامر |
| | وصار الذي صار يا ابن الرضا |

و بقي المولود الأسود محكوما بثقافة ترفضه لونه الذي لم يختره، إلا أنه لم يكن شخصا إنهمايا، بل كان اختلافه سببا في فرادته، فلم يكن ينظر إلى اللون إلا في ضوء نسق ديني يعكس ثقافته سالفة الذكر، يرد بركات (أبو زيد الهلالي) على أبيه الذي اتخذ من النسق الثقافي السائد ذريعة في رفض أبوته، وتخلي عن الولد الأسود تحت تأثير ذلك النسق؛ يقول الراوي: "فلما فرغ رزق من كلامه قال له بركات إذا قال لك أحد أرم نفسك بالجرب ترمي حالك وأنت أيضاً تخالف كلام ربك في تكوين خلقه فإذا كان الابن لا يشابه أباه تقول عنه ابن زنا وأشار يقول:

¹ المصدر نفسه، ص 24.

² المصدر نفسه، ص 33.

أيأ رزق كيف تطيع الناس كلهم
وتخرب بيتك يا أمير بيدك
وإن جاك طفل لونه أسمر
فانظر إلى المخاليق كلهم
فهذا أبيض كأنه البدر في السما
فلو كنت عاقل ما سمعت كلامهم
يأليت من كان السبب بفراقنا
تطلق لأمي دون إثبات
وتبقى مع الرعيان دون ثبات
فذا خلقه الباري صاحب الآيات
تري صورهم دوم مختلفات
وهذا تراه يشبه الفحمت
وتشمت بك الأعداء والسادات
يجيه العمى والهول والشدا ت¹

فإذا نظرنا إلى عجز البيت الأخير من الأبيات التي جاءت على لسان بركات (يجيه العمى والهول والشدا ت) ألفينا الدعاء الذي يستهدف هذه المرة الشدة والهلاك، ولعل دعاء بركات على من كان سببا في الفراق بينه وبين أبيه (سرحان) قد سبق بدعاء من أمه الخضرأ على الشخص ذاته، فأرادت له البلاء، فأنشدت تقول:

تقول فتاة الحي خضرا الحزينة
أيأ شيأ أبكي ونوحى على أمك
ليتك يا سرحان بالبلا واقع
أيأ رزق أحرقت الفؤأد بكلمتك
بدمع جرى فوق الخدود يعوم
من بعدها عاد القصر مهـوم
يجازيك ربي بكل سموم
وبيني وبينك واحد قيوم²

فنفذ فيه دعاء الخضرا وأبي زيد فسار إلى البلاء والشدا ت، وبين الدعاء والتحقق قدّم الراوي نصا سرديا محكما جاءت كل تفاصيله في سياق ذلك الدعاء باعتباره النسق الديني المحرك للبنى السردية الجمالية في نص السيرة، ولعل التمازج الحاصل بين الدعاء كنسق ديني وبين اللّون كنسق ثقافي قد أعطى للمتلقى صورة دقيقة عن طبيعة الذهنية التي حكمت المجتمع العربي في المرحلة التي تؤرّخ لها السيرة الهلالية، فنسبة الولد الأسود إلى العبيد تعود إلى المرجعية العربية التي دأبت على رؤية السود عبيداً من أصل العبيد، ولذلك فلا حق له في الحسب والنسب أو الرفعة و علو الشأن، والتاريخ العربي يذكر عديد النماذج التي تؤكّد هذه العقلية، لعل أشهرها عنتره بن شداد العبسي، والجدير بالذكر أنا أبا زيد الهلالي

¹ سيرة بني هلال، ص 33.

² المصدر نفسه، ص 25.

قد أبدى نفورا كبيرا من تلك العقلية متأثرا بمرجعياته الدينية التي تقصي بالمساواة بين الخلق بعيدا عن الإقصاء والميز العنصري.

لقد كان اللون الأسود أصعب اختبار واجهه بطل السيرة الهلالية الذي وجد نفسه في مواجهة تلك الذهنية الراسخة، ولعل أبرز ما شكّل بطولة أبي زيد الهلالي هو تغلبه على تلك المعضلة واجتيازه لذلك الاختبار بنجاح أصبح معه رمزاً راسخاً في تاريخ العرب.

3- تجليات صورة العربي في السيرة الهلالية:

تعدّ السيرة الهلالية من أكثر النصوص السيرية شهرة وتداولاً في الأوساط الجماهيرية، فقد بقيت على مدار قرون عديدة تلقى عناية المتلقي العربي وتثير اهتمامه، والباحث في الأسباب الكامنة حول اتساع دائرة تلقي هذا النص يكشف عن عدّة أسباب وعوامل ترتبط في المقام الأول بطبيعة الشخصيات التي يعرضها وكيفية توصيفه لها، فقد عمدت الهلالية إلى نقل صورة حية عن الفئات الاجتماعية المختلفة، ووقفت عند كلّ فئةٍ بالتحليل لإبراز سماتها الاجتماعية والنفسية من خلال عرض نماذج مختلفة في الرؤى والتصورات، فعرض صورة العربي كما عرضتها مختلف النصوص الإبداعية على أنّه الرجل الشهم الشجاع الكريم المقاتل المقدام وما إلى ذلك من النعوت التي التصقت بالعربي وشكلت صورته النمطية في المخيال والثقافة العربيين، فأبو زيد الهلالي كان نموذجاً للرجل العربي في تجلياته المثلى، و"ترتكز بطولته على دعامين اثنتين أولاهما الشجاعة (...) ولكّهم بالغوا فيها حتى أخرجوها عن الممكن وتجاوزوا بها الطاقة البشرية وكادوا يسلكونها مع الخوارق، فهو كغيره فارس يجيد الركوب والكر والفر والمنازلة واستعمال السلاح كالسيف والرمح، ولكنه كفاء جيش بأسره، إذا صرخ ارتعدت له الفرائص تسبقه شهرته وتؤثر في منازلته (...) الخصلة الثانية هي الحيلة (...) فهو يستطيع أن يتنكر في أي زي وأن يحترف أي مهنة وأن يتحدث بأي لغة"¹، فخرجت بها عن حدود المعقول والبشري إلى العجيب واللامألوف، غير أنّ المتمعن في نص السيرة يكشف أنّها رصدت للعربي صوراً أخرى لم تكن إيجابية بالضرورة، فقد عملت عن نقل صورة أكثر واقعية عن العقلية العربية وما يشوبها من نقائص وسلبيات فـ "تحدثت على نحو موضوعي عن حقيقة الوضع العربي (...) إذ لم تكتف بالتوقف عند الإيجابيات فحسب (...)"، كأن تتحدث عن شجاعة العربي وكرمه وانتصاراته. فعلى سبيل المثال توقفت الهلالية عند خيانة بعض العرب لبعضهم، والاستعانة بالآخر (دينيا أو عرقياً) لمعاونته على عربي مثله. كما توقفت عند حال الفرقة والانقسام التي تسود المجتمع لحظة النصر؛ لتقسيم الغنائم والمكاسب، والصراع على السلطة، هذا إلى

¹ عبد الحميد يونس: الهلالية في التاريخ والأدب الشعبي، مطبعة جامعة القاهرة، مصر، ط1، 1956م، ص ص 187-188.

جانب توقعها عند مآثر العرب، التي تقدمها بوصفها قيما اجتماعية مأمولة Prospected social values، يرغب الراوي في أن تسود المجتمع، دون أن يأخذ الحديث عنها شكل التمجيد والمدح لكل ما هو عربي¹. ففي رحلة البحث عن الحياة الكريمة واجهت قبائل بني هلال الأهوال والصعاب وهو ما وضع أفراد هذه المجموعة البشرية في امتحان حقيقي يكشف فيه معدن الإنسان ومدى قدرته على التّضحية في سبيل غيره، وتنعكس هذه الصورة بشكل جلي في الفصل الثالث من التغريبة² أين اشتدت الحروب والمعارك بين العرب أنفسهم بسبب الخلاف حول تقسيم الأراضي والغنائم فيسود الصراع وتختفي روح التّسامح والأخوة بينهم، فعكست التغريبة صورة العربي الذي " إذا انتصر في حرب ما أو حقق ما يطمح إليه، لا ينشغل بالمحافظة على انتصاره، بقدر ما يبدأ مرحلة جديدة قوامها التشتيت والفرقة والانقسام مع العرب الآخرين؛ بهدف تقسيم غنائم الحرب، أو الصراع على السلطة"³، فالقارئ للأجزاء الأخيرة من التغريبة يلحظ تلك الصورة بشكل واضح وجلي، وعليه فقد قدّمت السيرة الهلالية صورة العربي بشكل موضوعي جمعت فيه بين إيجابياته وسلبياته بعيدا الصور النمطية الشائعة.

4- الذات الأنثوية في السيرة الهلالية:

كان للمرأة في السيرة الهلالية حضورا بارزا وخصوصا في آن واحد، فقد عرض لنا الراوي العديد من الشخصيات الأنثوية التي أثرت في مسار الأحداث، فشخصية الخضرا زوج رزق ووالدة أبي زيد الهلالي كانت شخصية محورية في بداية السيرة فأدت دور الأم التي واجهت الظلم وصنعت البطل الذي لا يقهر لتنتقم به من الذهنية العربية المستبدة، وقد عكست شخصية الخضرا صورة المرأة الوفية لزوجها التي تعرف حق المعرفة دورها كزوجة وأم، فالخضرا رغم قسوة زوجها رزق عليها لم تحقد عليه ولم تنتقم منه حتى حين أتاحت لها الفرصة لذلك، فإذا نظرنا إلى قولها:

| | |
|-----------------------------------|---|
| تقول فتاة الحي خضرا اللي شكت | بدمع جرى من مقلّة العين حادر |
| أيا مير لا ترمي بعرضي شناعة | أنا قط ما أعرف دروب المناكر |
| أيا مير من حين دخلت لأرضكم | فلا رأني عبد ولا سيد عابر |
| وحاشا لمثلي إن كان تميل إلى الخنا | وأنا حليّة رزق كالسبع كاسر ⁴ |

¹ خالد أبو الليل: السيرة الهلالية والتلقي الشعبي -دراسة في أشكال الاستجابة الجماهيرية-، مجلة الثقافة الشعبية، ع 38.

² ينظر تغريبة بني هلال ورحيلهم إلى بلاد المغرب وحرورهم مع الزناتي خليفة، دار عمر أبو النصر، بيروت، ط1، 1971م، ص 23.

³ المرجع السابق.

⁴ سيرة بني هلال ، ص 25.

ألفينا امرأة تحاول جاهدة إقناع زوجها ببراءتها وشرفها إلا أنه لم يصدق دمعها ويمينها ورمى بها في التهلكة بتهمة المولود المختلف، إلا أنها كانت أكثر رحمة ورأفة منه، فحالت دون أن يقتل الولد والده، فعكست بذلك صورة الصبر والحلم معا، تقول:

تقول فتاة الحي خضرا الشريفة أيا ولدي ارفق بحال أبيك
هذا رزق هو أبوك بلا خفا وقد كان عند العدا راميك
وسرحان كان السبب في فراقنا من دون تفكير كان أديك
وحاشاك تقتل يا ابني لوالدك واسمح عنه فالخير يوافيك¹

ورغم الأهمية الكبيرة التي احتلتها شخصية الخضرا لاسيما في مطلع السيرة إلا أن الشخصية الأنثوية التي خلدها السيرة الهلالية هي شخصية الجازية التي مثلت صورة المرأة الحكيمة التي يرجع إلى القوم في عظام أمورهم فيستشيرونها ويأخذون برأيها لما لها من الحكمة وسداد الرأي، يقول أبو زيد السلطان حسن: "ولكن قبل الرحيل من هذه الأطلال بالفرسان والأطفال والنساء والعيال، يجب أن ترسل أيها الأمير المؤيد بعض الرجال ليأتي بالجازية أم محمد لتركب أمام ظفون بني هلال (...)، لأن الجازية من النساء الشهيرات وهي ذات رأي وتدبير"²، وبذلك كان للمرأة حضور بارز في السيرة الهلالية على الرغم العقلية الذكورية التي كانت تحكم الذهنية العربية كما صورتها أحداث هذه السيرة الخالدة.

خاتمة: نخلص من خلال هذه الورقة البحثية إلى جملة من النتائج نجملها فيما يأتي:

- انفتحت السيرة الشعبية على العديد من الأجناس الأدبية والأشكال التعبيرية التي جعلت منها عالماً رحباً استطاع أن يستوعب مختلف الأنساق الثقافية التي تحيل القارئ على عالم من الرؤى والمشاهد تتفاعل فيها مقومات الذات بمفاهيم الأخر.
- ألحقت السيرة الشعبية في العديد من الدراسات بالرواية نظراً للقواسم المشتركة العديدة بينهما، على غرار ما نجده عند فاروق خرشيد في كتابة الرواية العربية في عصر التجميع.
- مثل الدعاء واللون نسقين ثقافيين مضميرين متفاعلين كان لهما أثر بالغ في توجيه أحداث السيرة الهلالية.

¹ سيرة بني هلال، ص 34.

² تغريبة بني هلال، ص 30.

- تعدّ السيرة الشعبية من الأشكال التعبيرية التي استطاعت أن تعبر تعبيراً صادقاً عن واقع الشعوب التي تنتجها، فالسيرة الهلالية نقلت صورة موضوعية عن الجماعات البشرية التي تحدّثت عنها، فتنوعت خصالهم بين ما هو إيجابي وما هو سلبي.
- حظيت المرأة بمكانة رفيعة في نص السيرة الهلالية لما كان لها من دور في بناء المجتمع الهلالي وتوجيهه بالحكمة والرأي السديد.

قائمة المصادر والمراجع:

أولاً – المصادر:

- سيرة بني هلال، دار الكتب الشعبية، بيروت، ط1، 1981م.
- تغريبة بني هلال ورحيلهم إلى بلاد المغرب وحرورهم مع الزناتي خليفة، دار عمر أبو النصر، بيروت، ط1، 1971م.

ثانياً – المراجع:

- أحمد شمس الدين الحجاجي: مولد البطل في السيرة الشعبية، دار الهلال، القاهرة، 1996م.
- الحافظ ابن كثير: البداية والنهاية، دار المعارف، بيروت، ط8، 1990م.
- خالد أبو الليل: السيرة الهلالية والتلقي الشعبي – دراسة في أشكال الاستجابة الجماهيرية-، مجلة الثقافة الشعبية، ع 38.
- سعيد يقطين: الكلام والخبر- مقدمة للسرد العربي-، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 1997م.
- سعيد يقطين: قال الراوي – بحث في بنية الحكاية الشعبية-، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، ط1، 1997م.
- عبد الحميد يونس: الهلالية في التاريخ والأدب الشعبي، مطبعة جامعة القاهرة، مصر، ط1، 1956م.
- عبد الله إبراهيم: النثر العربي القديم – بحث في ظروف النشأة وأنظمة البناء-، منشورات جامعة السابع من أبريل، الجماهيرية الليبية، دت.
- عبد الله إبراهيم: موسوعة السرد العربي 2، قنديل للطباعة والنشر، الإمارات العربية المتحدة، ط1، 2016م.
- ضياء الكعبي: السرد العربي القديم – الأنساق الثقافية وإشكاليات التأويل-، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 2005م.
- فاروق خرشيد: أضواء على السيرة الشعبية، دار القلم، القاهرة، ط1، 1964م.
- فاروق خرشيد: الرواية العربية في عصر التجميع، دار الشروق، بيروت، ط3، 1982م.